



لم تكن يوما ممن ينكرون وجود خطاب اسمه خطاب المقاومة والممانعة، ولا وجود محور سياسي بذات الاسم، وهو محور كان عماده الشارع العربي الراض للمشروع الصهيوني وأي شكل من أشكال التطبيع معه، وتتصدره القوى الإسلامية، إلى جانب قوى قومية ويسارية محدودة الشعبية.

لكنه محور أخذ تميزه للتذكير من وجود محور آخر كان اسمه "الاعتدال"، وعنوانه الانبطاح أمام الغرب لأجل مصالح الأنظمة وليس أي شيء آخر.

ونتذكر أن أسوأ محطات الانبطاح في سلوك النظام المصري على سبيل المثال كانت حين قرر حسني مبارك التوريت لنجله جمال، الأمر الذي تطلب استحقاقات لا بد من تقديمها للخارج.

فيما نتذكر في المقابل أنه التقى منتصف التسعينيات مع سوريا والسعودية في محور ثلاثي رافض للتطبيع عقب تطور مشروع أوسلو، ووجود ضغوط أميركية للتطبيع مع الكيان الصهيوني، ثم شرع ذات المحور بعد ذلك بسنوات في التراجع (مصر بعد ظهور ملامح التوريت، والسعودية بعد الاتهامات التي وجهت إليها بتفريخ الإرهاب الذي أنتج هجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول 2001).

الأنظمة إذن لا تهيم عشقا بالغرب والصهاينة، ولكنها تبني سياستها على أساس تحقيق مصلحة نخبتها الحاكمة، ولو وجدت سياسة تحقق تلك المصلحة، في ذات الوقت الذي تكسبها فيه ثقة الشعوب وحبها، لما ترددت في اتباعها، لكن ذلك لا يبدو ممكنا في أكثر الأحيان، لا سيما أن جزءا مهما من رضا الشعوب يتطلب نبذ الدكتاتورية والفساد، ومنح الناس حق التأثير في قرارهم السياسي.

وهنا يكمن الخط الأحمر، لأن على من يريد التتكر لمطالب شعبه، أن يبحث عن مصدر دعم من الخارج، والخارج له مطالبه، وهنا في الحالة العربية كانت أهم المطالب هي الأمن الصهيوني، فضلا عن استحقاقات تتعلق بالسياسات المتعلقة بإدارة الثروة، وقضايا أخرى تبرز بين الحين والآخر.

قلنا إن عماد جبهة المقاومة هي الشعوب والقوى الإسلامية، وبعض قوى أخرى قومية ويسارية كانت تبحث عن دور بعد عقود من تراجعها الشعبي، أما النظامان اللذان حسبا على الجبهة فكانت لكل منهما حساباته المصلحية.

فإيران لها مشروعها الإقليمي الذي يستخدم المذهب في التمدد والنفوذ، ويتطلب دعم القضية الفلسطينية وحزب الله في لبنان، مع التذكير بأنها ارتكبت خطايا ضد منطق هذه الجبهة حين تطلبت مصلحتها ذلك، كما هو حال دعمها غير المباشر لاحتلال العراق وأفغانستان.

أما النظام السوري فوقف في هذا المحور لأن مصلحته تقتضي ذلك، وكان ثمن الانبطاح بالنسبة إليه أعلى من ثمن المقاومة كما كان بشار الأسد يردد دائما، ولو نجح مشروع غزو العراق مثلا (وقف النظام مع المقاومة، وتحالف مع من يسميهم الآن تكفيريين ومتطرفين)، لكان وضعه في غاية السوء، وكان مضطرا للركوع أمام الكيان الصهيوني بعد ذلك، بل لكان وجوده في السلطة مشكوكا فيه، أعني نخبته العلوية على وجه التحديد.

وللتذكير، فقد وقف النظام حين كانت مصلحته تقتضي ذلك مع الأميركيين في حربهم على العراق بعد غزو الكويت، ولا أظن السادة المتاجرين بشعار المقاومة والممانعة ينكرون ذلك.

لم تكن الشعوب، ولا القوى الإسلامية تجهل ذلك كله، لكنها كانت أمام خيارين، بين جبهة تنادي بالانبطاح أمام الغرب والكيان الصهيوني، وجبهة أخرى تنادي بالمقاومة، وإن كان للنظامين الأكثر تأثيرا فيها أهدافهما المعروفة، وهي في الحالتين ذات بعد طائفي.

ولأن الشارع هو عماد هذه الجبهة (المقاومة والممانعة)، وهو الذي يمنح الشرعية للقوى السياسية المنخرطة فيها، وكذلك الحال للأنظمة، فقد كان من الطبيعي أن تنحاز القوى الإسلامية التي كانت عماد هذه الجبهة للشعوب حين اختارت الثورة على الظلم والدكتاتورية والفساد، بصرف النظر عن المواقف الخارجية الخاصة بكل نظام، إن كانت في أسوأ درجات الانبطاح كما هو حال مبارك وبن علي، أم كانت بين بين، كما كان الحال بالنسبة للقذافي وعلي عبد الله صالح، أم كانت منتمية لجبهة المقاومة كما هو حال النظام السوري.

في المقابل انحازت القوى اليسارية والقومية أو أكثرها للبعد الحزبي والأيديولوجي ضد الشارع الذي تزعم تمثيله، فيما استعادت القوى المذهبية وجهها الحقيقي، إن كانت دولا، كما هو حال إيران والعراق، أم كانت أحزابا وتيارات كما هو حال حزب الله وسائر التيارات الشيعية في المنطقة، بما فيها للمفارقة تلك التي جاءت على ظهر الدبابة الأميركية في العراق.

بالله عليكم، أيهما كان الأصدق في خطابه وخياراته، من انحاز لنظام مجرم يقتل شعبه بحجة المقاومة والممانعة، أم من انحاز للشعوب، جميع الشعوب دون تفریق بين شعب وشعب، أو بين نظام ونظام، ووقف مع حقها جميعا في الحرية والتعددية؟

ولا قيمة هنا لحكاية البحرين، ليس فقط لأنها ليست ثورة محسومة لجهة التغيير الشامل، بقدر ما هي احتجاج شعبي، إلى جانب فرصتها المعدومة في النجاح بسبب وجودها في وسط سياسي خاص (الخليج)، بل أيضا لأن الحشد المذهبي في المنطقة لم يسمح بتأييدها إثر موقف غالبية الشيعة مما جرى في سوريا، مع التذكير بأن غالبية القوى الإسلامية (السنية خارج البحرين) لم تؤيد النظام ضد المحتجين كما فعلت القوى الشيعية بتأييدها للنظام المجرم في سوريا.

نتذكر ذلك كله بين يدي الاتفاق الذي عقد بين نظام بشار والأميركيين بمبادرة روسية للتخلص من السلاح الكيميائي، وكيف اختار النظام نفسه ومصلحة (نخبته الحاكمة) حين خاف على نفسه من السقوط، وقدم السلاح الذي جمعه لردع العدو من قوت السوريين، قدّمه لذات العدو دون تردد، مع خطاب يشي بالانتصار، ما يؤكد أن الانتصار بالنسبة إليه هو بقاء النظام،

وليس أي شيء آخر.

ماذا يتبقى من خطاب المقاومة والممانعة بعد ذلك، وأي ازدراء سيشعر به المواطن العربي والمسلم وهو يسمع شبيحة النظام السوري وأبواقه، وأبواق إيران يرددون حكاية المقاومة والممانعة؟  
لقد آن أن يتوارى هؤلاء عن أنظار الناس، فمن يقف ضد أشواق الناس في الحرية لا يمكن أن يكون إلا في مربع العدو، فالشعوب هي وحدها مستودع الحق والشرعية، ومن ينحاز إليها هو من ينحاز فعلا إلى جانب الحق، وتبعاً لذلك إلى جانب المقاومة والممانعة ضد أعداء ذلك الحق.

الجزيرة نت

المصادر: